ولد بدر السياب من جديد لكنه كوردي هذه المرة

د.إدريس كريم محمد

قصيدة (سورة الرصاص أو أنشودة الدم – مع عدم اعتذاري للشاعر بدرالسياب) للشاعر لطيف هةلمةت.

أن للقصيدة غاية جمالية كبرى بإعتبارها عملا فنيا قبل كل شيء ولكن لها مهمات أخرى لا تقل خطورة عن غايتها الجمالية تلك ، فالهدف من الشعر لاينحصر كما يقول يوري لوتمن في طرائقه فقط بل يمتد الى معرفة الإنسان بالعالم وبالعلاقات بين الناس وقدرته على بناء شخصيته في غمار عملية المعرفة والتواصل الإجتماعي أي أن الهدف من الشعر يتفق مع الهدف من الثقافة بعامة(١) فالأدب إذن ليس تقنية معزولة عن موضوعها أو لعبا بريئاً مع اللغة بل هو طريقة خاصة في الإفصاح عن تجربة إنسانية ، وطبيعي أن ذلك لايعني أن تتحول القصيدة الى حقيبة محشوة بالأفكار ووجهات النظر والمعاني المبتذلة(٢)فالنص الشعري لايحقق ذلك الهدف الا بوسائله الخاصة.

إن شاعرنا لم يكن في أكثر الأوقات متفقاً مع الحياة بل يكون ذاتاً تتفجر بشحنة التضاد والتهكم والثورة على الحياة كلها وعلى كل مايصدر عنه من مواضعات و أعراف إجتماعية وروحية وشعرية ، أي أن موقفه العبثي الساخر من هنا لم يكن يقتصر على الجانب الإنساني من حياته الفردية بل يمتد الى تجليات تجربته الشعرية ذاتها لغة وبنية وأعرافا فنية. لقد كان تجربته كشاعر وإنسان تتفجر عنيفة مضطرمة بفعل سلسلة من الثنائيات المتضادة (الحاضر والماضي، الحلم والواقع، الذات والموضوع، الحب والشقاء، ..... الخ) وقد تجسد ذلك كله وبصدق مؤلم في لغته التي كانت في أحيان كثيرة ضحية لوطأة هذه الثنائيات بينما كانت في أحيان أخرى، هدفا لعبث الشاعر وتهكمه المريرين باعتبارهما معطى عاماً، ومؤسسة اجتماعية تتحقق في معزل عن ذاته المتمردة، تضغط على كيانه الفردي النزاع الى التحرر، خارج نصوصه وداخلها(٣).

هذه الملاحظات تستند على لعبة التماثل و التعارض ذات الطبيعة المورفولوجية والفونولوجية والنحوية والسيميائية، تتناول بنية القصيدة في إتجاهات متعددة وتجعل منها موضوعاً يسيطر مبدأ التعادل الذي يتم تأويل مكوناته مع الأخذ بعين الإعتبار التقاربات والتعارضات المبثوثة في النص، يتم التنبه الى شكل القصيدة أثناء عملية التحليل، ذلك لأن التمفصلات الكبرى للأبيات والمقاطع تأتي لدعم وإبراز المعادلات اللغوية، بنفس القدر الذي تشكل هي فيه معادلات شكلية(٤). بعد كل هذا نستطيع أن نقول بأن شاعرنا لجأ الى إستخدام آراء أو أفكار أو أسماء الشخصيات البارزة والتأريخية كمحاولة لتوظيفهم في القصيدة، ويحاول أن يستخدم هذا الأسلوب وذلك بإستدعاء هذه الشخصيات المؤثرة في التأريخ ، على سبيل المثال (جواد سليم، بدر شاكر السياب، محمود درويش، سعدي يوسف ، عبدالله أوجلان، عبدالرحمن منيف، طيب صالح، زكيا الكان، أرنست همنجواي، جون شتاينبيك، جبرا ابراهيم جبرا، دانتي اليجيري، لوركا، معروف عبد الغني الرصافي، فاضل عزاوي، شيخ سعيد البيران.....)، فالشاعر حاول إستخدام هذا الأسلوب أيضاً كرمز أو كقناع لمقصديته وحاول جعل هذه الشخصيات بأن تتحدث نيابة عن الشاعر وحاول أيضاً تقمصهم أو الإتحاد معهم، أو حاول خلقهم خلقاً جديداً، وأن لهذه الشخصيات المستدعية لدى الشاعر دور تأريخي وأنهم ذو قيمة إيجابية (٥). وأن هكذا الأنواع من التوظيف فقد يجيء رمزاً مثيراً للدلالات في الأفكار والمواقف(٦).

على وفق المبدأ السوسيري الذي يقضي بتشكل اللغة طبقاً للتطابقات والإختلافات ، تشكلت المناسبة بين الدوال والمدلولات بالنظر الى أن للدوال المختلفة مدلولات مختلفة وللدوال المؤتلفة مدلولات مؤتلفة، وإذا كان هذا المبدأ يفرض على اللغة إيجاد دوال مختلفة وكثيرة الأمر الذي لاتتوفر عليه، فهي بحكم هذا المبدأ تتجه الى مبدأ آخر، مبدأ التمفصل المزدوج الذي يتيح

إمكانية بلورة دلالات غير محدودة عن طريق فونيمات محدودة(٧). ووفق هذا المبدأ تقوم شعرية النص للشاعر لطيف هلمت على نظام خاص في تركيب نسيج بنية اللغة الشعرية متنقلاً إنتقالاً متنامياً من الفضاء (الحلم) في البداية الى الفضاء المعادي (فأصطادني) في المشهد الأخير أي إنه ينمو نمواً فاعلاً (٨) .

قصيدة ((سورة الرصاص أو أنشودة الدم – مع عدم اعتذاري للشاعر بدر السياب))- للشاعر لطيف هلمت، قصيدة مطولة فيها صور وأبعاد كثيرة، ومن المعلوم أن العنوان بصورة عامة في العصر الحديث أصبح مظهراً أساسياً من مظاهر القصيدة الحديثة ولازمة من لوازمها فهو يشكل مدخلاً الى عوالم القصيدة وأجوائها والشعراء يحاولون التفنن في إختيار العناوين مادة للدراسة النقدية، ولاسيماً الجانب التطبيقي.

ان عنوان القصيدة لشاعرنا عنوان طويل وله أكثر من دلالة وغرض و به نوع من الفسيفساء المباشر دون اللف والدوران من قبل الشاعر لكن هذا الفسيفساء به نوع من الفسيفساء الجزئي أو التغيير الجزئي للشيء المأخوذ من قبل الشاعر فهو يبدأ بتناص سورة الرحمن تناصاً جزئياً من خلال تغييره من : -

سورة الرحمن ← سورة الرصاص

وأيضاً تناص عنوان قصيدة (أنشودة المطر) لبدر السياب الى أنشودة الدم

أنشودة المطر ← أنشودة الدم

أي ان مصدر التناص لدى الشاعر من مصدرين (الديني، والإنساني)، ونستطيع أن نلمس آثار النصوص السابقة بصورة صادقة وظاهرة وعدم اللجوء الى إختفاء هذه الحقيقة، ففي بداية القصيدة أشار الشاعر بسطر شعري على شكل طابع ملاحظاتي ويقول :- ((في هذا النص – القصيدة – ثمة صدى لسورة الرحمن من حيث صياغة الجمل وحبكة الموسيقى الداخلية وتكرار مجموعة من الكلمات ونلمس التأثير القرآني في قصيدة أنشودة المطر لبدر السياب أيضاً)). فهذا الإعتراف شيء جميل يؤكد صدق التجربة الشعرية لدى لطيف هلمت. والتناص الموجود في القصيدة أشار اليه الشاعر بصورة مباشرة دون محاولة إخفائه. وهذا يندرج ضمن التناص الخارجي الذي وقع بين نص شاعرنا والنصوص الأخرى أكانت قرآنية أم أدبية لباث ما، وبإمكاننا أيضاً أن نلمس التناص المتوازي من حيث عدم وجود المحاولة للتغيير الكلي للنص المأخوذ من قبل الشاعر وهذا يقع تحت إبرة الدرس البلاغي للإقتباس والتضمين القرآني، أو نلمس تناص النفي الجزئي من حيث وجود النصوص السابقة – بصورة مباشرة أو غير مباشرة – مع إجراء تغيير ما حسب طبيعة القصيدة لشاعرنا، وسنحاول الإشارة الى هذين النوعين في مرورنا مع القصيدة.

بعد العنوان المتناص مباشرة أن شاعرنا تحدى السياب مع عدم تقديمه الإعتذار له كما سيقدمه لكتاب وروائيين كثيرة في القصيدة أكثر من مرة، لأن سياب في داخل قصيدته (أنشودة المطر) إقتبس من القرآن لكن شاعرنا بدأ بهذا الأسلوب منذ البدء بالقصيدة معتمداً في هذا إعتماداً مباشراً على فكرة سورة الرحمن وأعطى هذه الفكرة قدرة دلالية قوية لقصيدته بجمعه بين مصدرين مختلفين كل واحد من جهته:-

مصدر ديني = القرآن مصدر إنساني = سياب

ومع عدم تقديم الشاعر الإعتذار لسياب فإن لجوء الشاعر الى إستدعاء عنوان قصيدته وإسمه دليل على قوة السياب كقوة ثانية بعد قوة المصدر الديني وأن الشاعر حاول أخذ القوة منهما لأنه أتى بهما كمصدرين أساسيين ، وشكل هذين المصدرين عنوان قصيدة شاعرنا وهذا يثبت إعتماده عليهما بصورة واضحة.

من خلال دلالة هذه الثنائية للعنوان أن شاعرنا هو شخص ذو خيال واسع وهو يريد أن يدخل بهذا الخيال الى قصيدته ويظهر هنا مباشرة عندما يقول : ((مرة حلمت بأني قمر)) هذا يثبت قولنا لأن الشاعر استسلم بحالة نفسية قوية ومؤثرة في الوقت نفسه على غرار الرومانسيين وهي حالة

((الحلم والخيال)) والشاعر يختار في حلمه القمر لأن أضواء القمر في الليل أقل مقارنة بالنهار أو بالشمس، وهو يريد أن